

الوافي في الوفيات

رُسِمَ بالأمر العالي ولا زال يزيد الأولياءَ رَينًا ويزين الأكفاءَ بمن إذا حلَّ صدراً
كان عَينًا ويرتجع لكلِّ مستحقٍّ ما كان له في ذمَّة الزمان دَينًا أن يستقرَّ المجلس
العالي الزينيُّ في كذا ؛ لأزَّه الكاتب الذي دبَّجَ المهارق ورقمَ طروسها فكان لها
نظراتُ الحَدَق ونضارة الحقائق وخطَّ سطورها التي إذا رمَّ لها غدت من الحسنِ
كالرَّيحان تحت الشقائق وصرع بها أطيَّار المعاني لأن دالات السطور قِسيَّ والذُّقُط بنادق
وزان آفاقها بنجوم أسجاءه فلم يصل أحد إلى درجات فصاحتها لِمَا فيها من الدقائق وأصدرها
في الرِّوَح والرَّوَع يُرَجَّي الحيا منها وتُخشي الصواعق وأودعها نفائس إنشائه فأثنى
عليها أئمَّة البلاغة ولو سكتوا أثنت حقائب الحقائق . طالما كتب بالأبواب الشريفة
تقليداً وجهَّز في المهمَّات كتباً ملأت البحر حرباً والبرَّ بريداً ووشَّي أمثلةً صدرت
عنها فطارت في الآفاق ولكن أوثقتها الأفهام تقييداً وعاد الآن إلى الشام فنفس عنها خناق
الوحشة بقربه وتلقَّته بالرحب علماً بأنها تَغْذِي عن الكتاب بكُتُبِه وأحلاَّتَه في
رُتَبَةٍ يَسُرُّ فيها الوليَّ بسلمه ويسوء العدوَّ بحربه شوقاً إلى أُنسِ أَلِفَتَه من
لطفه وعرفته من عُرْفِه في نفح عَرَفِه فطاب به الواديان كلاهما وتنافسَا في أخذ حظَّيَهما
من قُربِه فما تسهلا تساهُماً . فهو من القوم الذين تشقى البقاع بهم وتُسْعَد وإذا قربوا
من مكانٍ تخطَّاهم السوء للأبعد وإذا قاموا بهمهمَّ كانوا به أقعد وإذا باشروا المعالي
كانوا أسعد الناس وأصعد وإذا كتبوا العدى لأنَّ كلامهم لَمَعَ فأبرق وطَرسهم
قَعَقَعَ فأرعد . فليباشر ذلك على ما عُهد من أدواته الكاملة وكلماته التي تركت محاسنَ
البرايا بائرة وأزاهرَ الخماثل خاملة . والوصايا التي تُملَى كثيرة وكم شرَّع لها
قرطاسه وشرعها بأقلامه ونضَّد عقودها بإحكام أحكامه وملأ بجيوشها صدور مَهامِه فما يُلقَى
إلى بحره منها دُرَّة ولا يُذكر لطود فضله منها ذرَّة ولا يطلع القلم في أفق فضله كَلَّه
شُموسُ من ذلك بَدْرَه ولا يُدلُّ مثله على صواب فقبيح بالعَوان أن تُعَلِّم الخِمره .
ولكن لا بد للقلم من لفتة جيد وفتة نفث تكون كالخال في الوجنة ذات التوريد وهي
الذكرى بتقوى الله تعالى التي من عَدِمَها فقد باءَ بخُسران متين ومن لزمها فقد جاء
بسلطان مبين . والله يتولَّى رفعة مجده وسعة رَفده . والخطُّ الكريم أعلاه حُجَّة بالعمل
بمقتضاه .

ومولده سنة ثلاث وتسعين وست مائة . وبينني وبينه مكاتبات كثيرة تشتمل على نظم ونثر ولم
يَحْضُرني الآن منها شيء . وذهنه جيّدٌ يتوقَّد ذكاءً وكتابته أصيلة منسوبة وعربيَّته

جيدة وقد أتقن مصطلح الديوان وحرّره فهو الآن من كتّاب الزمان . وكتبتُ إليه وهو
بدمشق وأنا بصدد : .
إنَّ عيني مذ غابَ شخصك عنها ... يأمر السُّهُدُ في كراها ويَذْهَبُ .
بدموعٍ كأَنهنَّ الغواصي ... لا تسلُّ ما جرى على الخدِّ منها .
وكتبتُ إليه وهو بغزّة مع غلامٍ حَسَنَ الوجه : .
يا نازحاً صَوَّرَتْهُ في خاطري ... فَرُميتُ للتصوير بالنَّيرانِ .
إن لم يُبَلِّغْكَ النسيمُ تحيَّاتي ... فلقد أتاكَ بها قضيبُ البانِ .
وكتبتُ إليه وقد تأخَّرت مكاتباته عنِّي وهو بدمشق : .
يا بارقاً سال في عطف الدُّجى ذهباً ... أذكرتني زمناً في جِلِّقٍ ذهباً .
لئن حكيتَ فؤادي في تَلَاهُوبِهِ ... فلست تحكيه لا وجداً ولا حَرَباً .
ويا نسيماً سرى والليلُ معتكراً ... وَهَبْ وَهْناً إلى أن هزَّني طَرَباً .
أراك تنفجُ عِطراً في صَبَاك فهل ... تركتَ ذيلاً على جَيرُونٍ مُنْذُ سَحَابٍ ؟ .
أم قد تحمَّسَّلتَ من صبحي تحيَّاتَهُم ... فكان ذلك في طيب الصَّباحِ سبباً ؟ .
قومُ عهدتُ الوفاءَ المحضَ شيمتَهُم ... وإن شكَّكتَ سَلَّ العلياء والأدبا .
صرفتُ إلّا عِناني عن محبَّتهم ... وبيتٌ نِضواً خليفَ الشوق مكتئباً .
لا الدار تدنو ولا السُّلوان يُنجدني ... وعزَّ ذلك مطلوباً إذا طُلِبَا